

المؤثرات الأجنبية في النقد الأدبي القديم

1- تمهيد

يعتقد بعض مؤرخي الأدب العربي ونقده أن النقد الأدبي العربي عرف وثبة حقيقية ابتداءً من القرن الرابع للهجرة بسبب شيوع حركة الترجمة والنقل، مما أسهم في ازدهار علم الكلام عند العرب، ونشأة الفلسفة الإسلامية "وهكذا أفادت الثقافة العربية من آثار الإغريق وغيرهم، واستطاع الأدب العربي أن يصور الحياة الفكرية الجديدة، وأن يفيد منها"¹

2- نشاط حركة الترجمة:

يعد العصر العباسي عصر الفترة الذهبية لتطور حركة الترجمة سواء من حيث التنظيم أوغزارة المؤلفات المترجمة، ولاسيما في خلافة هارون الرشيد (170-194هـ) وابنه المأمون (198-218هـ) الذي أسس بيت الحكمة ببغداد، وتعد أول مدرسة قام فيها العرب بترجمة المؤلفات والآثار الهندية والفارسية والسريانية والقبطية إلى العربية، وشملت علوم شتى كالمنطق والفلسفة والطب والفلك والرياضيات والكيمياء والأدب...ومن أبرز المترجمين آنذاك، حنين بن إسحاق (ت260هـ) الذي عرف بإجادته للغة الفارسية واليونانية والسريانية، فترجم عن سقراط وترجم التوراة من اليونانية إلى العربية، أما ابنه إسحاق بن حنين بن إسحاق (ت298هـ)، فقد قام بترجمة كتب الطب والفيزياء والفلسفة اليونانية إلى العربية. وكانت ترجماته على قدر من الدقة، أبان فيها على فهم عميق للفكر الأرسطي.

¹ - قصي الحسين، النقد الأدبي عند العرب واليونان، معالمه وأعلامه، ط1، المؤسسة الحديثة للكتاب، بيروت-لبنان، 2003، ص279.

ومن بين المترجمين البارزين أيضا نذكر متى بن يونس (ت320هـ) الذي ترجم كتاب (بوطيقيا) أو فن الشعر لأرسطو، كما نذكر ابن المقفع الذي ترجم من الفارسية كتاب عن الثقافة الهندية (كليلة ودمنة) إضافة إلى الأدب الكبير، و الأدب الصغير.

3- أثر الثقافة الأجنبية في النقد الأدبي القديم:

أسهمت حركة الترجمة والنقل في إثراء الأدب والنقد بما تُرجم من فلسفة اليونان ومنطقهم خاصة كتاب (بوطيقيا) فن الشعر، وكتاب (ريطوريقا) الخطابة لأرسطو، وليس هناك أدنى شك "في معرفة العرب لهذين الكتابين واطلاعهم على ما تضمنه كل منهما من آراء أرسطو في الشعر اليوناني والخطابة اليونانية"². وهكذا تأثرت عقلية الأدباء والنقاد بالخطاب الفلسفي في بلورة المفاهيم والنظريات البلاغية والنقدية، فالأفق الترجمي المحيط آنذاك بالخطاب الفلسفي العريق في نشأته وتطوره "هو الذي كان الباعث على اهتمام النقاد باختلاف اللغات ووحدة المعاني، وبمعضلات ترجمة الخطاب الفلسفي ومصطلحه"³.

وقد ورد في كتاب البيان والتبيين للجاحظ قوله: قيل للفارسي، ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، وقيل لليوناني، ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام، وقيل للرومي ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة عند الإطالة، وقيل للهندي ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة.

وهكذا كان لنشاط الترجمة أثره في اهتمام الفلاسفة والنقاد بالخطاب الفلسفي ومصطلحاته، فكانت نصوص أرسطو منطلقا لبلورة مفهوم البيان عند البلاغيين و النقاد، أمثال الجاحظ(ت255هـ) في البيان و التبيين، و ابن وهب الكاتب(ت335هـ) في كتابه (البرهان

²- قصي الحسين، النقد الأدبي عند العرب واليونان، ص270.

³- عبد الكبير الشرقاوي، شعرية الترجمة، ط1، دار توبقال، المغرب، 2007، ص54.

في وجوه البيان) أين وجدنا أقسام الكتاب هي نفسها أقسام النص الأرسطي في كتاب الخطابة.

4- مظاهر التأثير الأجنبي في النقد الأدبي القديم:

- الجاحظ (ت255هـ): استمد الجاحظ العديد من المفاهيم والقواعد من تأثيره بالسفسطائيين والخطباء المحترفين عند اليونان، ففكرة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" مستمدة من محاورات أفلاطون، كما فصل فيها أرسطو في كتابه (الخطابة)، وهذه الفكرة وجدت عند المعتزلة الذين يعتقدون أن الكلام طبقات يختلف باختلاف السامعين وطبقاتهم، وقد أكد الجاحظ على ذات الفكرة في كتاب (الحيوان) أين خصّ لكل طبقة كلاماً ولكل حالة مقاما (مراعاة حال المخاطب ومستواه).

- قدامة بن جعفر (ت337هـ): أفاد قدامة بن جعفر من منهج أرسطو وتأثر بالمنهج النقدي اليوناني، بدليل توظيفه للمصطلحات المنطقية الأرسطية في كتابيه "نقد الشعر" و "نقد النثر" مثل: الحد، النوع، الجنس، الفصل، الوسائط... كما تأثر بأرسطو في قوله بأن المديح ينبغي أن يكون بذكر الفضائل النفسية مثل: العقل والشجاعة والعدل على غرار ما كان يردده المعلم الأول (أرسطو) بأن الفضيلة قوة تستطيع أن تمدنا بخيرات كثيرة كالعدالة والشجاعة والعفة والحكمة، كما يلح قدامة بن جعفر على اعتناق نظرية الوسط في الفضائل، أي أن كل فضيلة هي وسط بين مذمومين، وإن الإفراط في الفضيلة يوقع في الذم.

- حازم القرطاجني (ت684هـ): حاول حازم القرطاجني محاورة كتاب (فن الشعر لأرسطو) من خلال قراءات ابن سينا (ت428هـ) والفارابي (ت339هـ) وابن رشد (ت595هـ). اقتنع حازم القرطاجني بأن النقد العربي التبس بالعديد من المفاهيم التي يشوبها الخاط والمغالطة، مما يتطلب إعادة النظر فيها، وترتيبها وبعثها في صورة جديدة. وأول ما لاحظته بعد اطلاعه على كتاب (فن الشعر لأرسطو)، تبين له أن

هذا الكتاب اعتنى بالشعر حسب المذاهب اليونانية (وأشعار اليونانيين إنما كانت أغراضا محدودة في أوزان مخصوصة)، بينما الشعر في لسان العرب فيه ضروب أخرى في فنون الكلام، كما لاحظ القرطاجني أن جلّ أشعار اليونان عبارة عن خرافات وأساطير.

وذهب حازم القرطاجني إلى تعريفه للشعر قائلا: "الشعر كلام مخيّلٌ موزون، مختص في لسان العرب بزيادة التقفية، والتتامه من مقدّمات مخيّلة، صادقة كانت أو كاذبة، لا يشترط فيها - بما هي شعر - غير التخييل".

وهكذا يضع حازم القرطاجني أسس الشعرية في ركيزتين أساسيتين هما:

المحاكاة والتخييل، إذ حلّل وفقهما العملية الإبداعية من جانب الإبداع ومن جانب التلقي، وهنا يتضح لنا تأثيره بالفلاسفة الذين خصوا الشعر بالدراسة واعتبروه عملاً مخيلاً قائماً على فن المحاكاة، وهكذا بلور حازم القرطاجني العديد من القضايا كالشعر والخطابة والتلقي والمعاني بمنظور فلسفي.